غزوات المصطفى ﷺ

(١٢)

غَزْوَةُ فَتْحِ مَكَّةَ..

الدكتور
محمد عمر الحاجي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

إِنَّ قُرَيْشاً أَخْلَفُوكَ المَوْعِدا

كَمَا رَأَيْنَا مِنْ قَبْلُ ، فَمِنْ شُرُوطِ صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ : أَنَّ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ في عَهْدِ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم دَخَلَ ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ في عَهْدِ المُشْرِكينَ دَخَلَ .

وَقَدْ دَخَلَتْ قَبِيلَةُ (خُزَاعَةَ) في عَهْدِ الرَّسُولِ ، وَدَخَلَتْ قَبِيْلَةُ (بَني بَكْرٍ) في عَهْدِ المُشْرِكينَ .

وَبَعْدَ عَامَيْنِ مِنْ صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ ، أَغَارَتْ قَبِيلَةُ (بَني بَكْرٍ) لَيْلاً عَلَىٰ قَبِيلَةِ (خُزَاعَةَ) .

وَالعَجيبُ في الأَمْرِ أَنَّ قُرَيْشاً سَاعَدَتْ (بَني

بَكْرٍ) بِالسِّلاحِ وَالرِّجَالِ وَالعَتَادِ .

فَما كَانَ مِنْ (بَنِي خُزَاعَةَ) إلا الهُروبُ إلىٰ الحَرَمِ الآمِنِ ، ثُمَّ أَرْسَلَتْ (عَمْرو بْنَ سَالِمٍ) إلىٰ المَدِينَةِ المنوَّرَةِ ليُخْبِرَ الرَّسُولَ بِغَدْرِ (بَني بَكْرٍ) ، وَبِمُسَاعَدَةِ قُرَيْشٍ لَهَا في ذلك .

وَعِنْدَمَا دَخَلَ (عَمْرٌو) المَسْجِدَ النَّبَوِيَّ ، وَقَفَ يُنْشِدُ قَائِلاً :

يَـا ربِّ إِنِّـي نَـاشِـدٌ مُحَمَّـدا
حِلْـفَ أَبيـهِ وَأَبِينَـا الأَتْلَـدَا
فَانْصُرْ رَسُولَ اللهِ نَصْراً أَعْتَدا[1]
وَادْعُ عِبَـادَ اللهِ يَـأْتُـوا مَـدَدَا
في فَيْلَقٍ كالبَحْرِ يَجْري مُزْبِدا
إِنَّ قُـرَيْشـاً أَخْلَفُـوكَ المَـوْعِـدا

---

(١) أي : حَاضِراً .

وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتُ أَدْعَو أَحَدا

فَهُمْ أَذَلُّ وَأَقَلُّ عَدَدَا

هُمْ بَيَّتُونَا بِالوَتيرِ هُجَّدا[1]

وَقَتَّلُونَا رُكَّعاً وَسُجَّدا

فَرَدَّ عَلَيْهِ الرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم قَائلاً : « نُصِرْتَ يَا عَمْرَو بْنَ سَالِمٍ » .

ثُمَّ أَمَرَ المُسْلمينَ أَنْ يُجَهِّزُوا أَنْفُسَهُمْ للزَّحْفِ نَحْوِ عَاصِمَةِ الشِّرْكِ مَكَّةَ ، وَأَمَرَهُمْ بِكِتْمَانِ الخَبَرِ ، وَدَعَا اللهَ قَائلاً : « اللَّهُمَّ خُذِ العُيُونَ وَالأَخْبَارَ عَنْ قُرَيْشٍ ، حَتَّىٰ نَبْغَتَهَا في بلادِهَا » .

فقالَ عُمَرُ رضيَ اللهُ عَنْهُ : إِنَّهُمْ لرَأْسُ الكُفْرِ ، هُمُ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ رَسُولَ اللهِ سَاحِرٌ ، وَأَنَّهُ

---

(١) أي : سُجّداً يُصَلُّونَ .

كاهِنٌ ، وَأَنَّهُ كَذَّابٌ ، وَأَنَّهُ مُفْتَرٍ... ، وَأيْمُ اللهِ لاَ تَذِلُّ العَرَبُ حَتَّىٰ يَذِلَّ أَهْلُ مَكَّةَ!

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : « واللهِ لأَغْزُوَنَّ قُرَيشاً ، وَاللهِ لأَغْزُوَنَّ قُرَيْشاً ، وَاللهِ لأَغْزُوَنَّ قُرَيْشاً إِنْ شَاءَ اللهُ » .

❊ ❊ ❊

فَشَلُ مُهِمَّةِ أَبِي سُفْيَانَ

وَقَامَ (أَبُو سُفْيانَ) بِمُهِمَّةِ تَخْفِيفِ حِدَّةِ التَّوَتُّرِ الَّذي حَصَلَ ، فَانْطَلَقَ إِلىٰ المَدِينَةِ المنوَّرَةِ لِيَعْتَذِرَ عَمَّا بَدَرَ مِنْ قُرَيْشٍ وَبَني بَكْرٍ .

وَهُناكَ دَخَلَ عَلَىٰ ابْنَتِهِ (أُمِّ حَبِيبَةَ) زَوْجَةِ رَسُولِ اللهِ ، فَاسْتَقْبَلَتْهُ بِجَفَاءٍ ، فَانْطَلَقَ إِلىٰ عُمَرَ.. ثُمَّ إِلَىٰ أَبِي بَكْرٍ رَضي اللهُ عَنْهُما يَتَوَسَّطُ مَعَهُمَا ، وَلٰكِنْ دُونَ جَدْوَىٰ ، فَأَتىٰ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ مُحاوِلاً ، فَرَفَضَ الرَّسُولُ أَنْ يُكَلِّمَهُ!! فَعَادَ إِلىٰ

مَكَّةَ خَائِباً ، وَلَمَّا أَخْبَرَهُمْ بِمَا حَدَثَ مَعَهُ ، قَالُوا لَهُ :

قُبِّحْتَ مِنْ سَفِيرِ قَوْمٍ ، فَمَا جِئْتَ بِخَيْرٍ!!

* * *

إِنَّها النُّبُوَّةُ يَا أَبَا سُفْيَانَ

وَتَحَرَّكَتْ جُمُوعُ المُسْلمينَ ، وَقَدْ زَادَ عَدَدُهَا عَلَىٰ عَشْرَةِ آلافٍ ، وَلَمَّا وَصَلَتْ إِلَىٰ منْطِقَةِ (رَابِغَ) قَالَ لَهُمُ الرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم : « إِنَّكُمْ وَقَدْ دَنَوْتُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَالفِطْرُ أَقْوىٰ لَكُمْ » :

وَفِي صَبِيحةِ اليَوْمِ الثَّانِي إِذَا بِعَمِّ رَسُولِ اللهِ (العباسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ) يَصِلُ إِلَيهِمْ مُهَاجراً مُسْلِماً ، فَفَرِحَ الرَّسُولُ لِذَلِكَ فَرَحاً شَدِيداً .

وَحَاوَلَتْ (قُرَيْشٌ) أَنْ تَثْنِيَ رَسُولَ اللهِ عَنِ الوُصُولِ إِلَىٰ مَكَّةَ ، فَأَرْسَلَتْ رُسُلاً يُفَاوِضُونَهُ ،

لٰكِنَّ الرَّسُولَ رَفَضَ ذٰلِكَ كُلَّهُ .

وَخَافَ صَنادِيْدُ مَكَّةَ ، فَأَرْسَلُوا (أَبَا سُفْيَانَ ، وَحَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ ، وَبُدَيْلَ بْنَ وَرَقَاءَ) بِمُهِمَّةِ الاسْتِطْلاعِ وَالمُفَاوَضَاتِ ، عَسَىٰ أَنْ يَحْدُثَ أَمْرٌ حَسَنٌ .

وَكَانَ الرَّسُولُ قَدْ أَمَرَ الصَّحَابَةَ أَنْ يُشْعِلُوا النَّارَ ، فَأَشْعَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ناراً ، فَلَمَّا رَأَىٰ أَبُو سُفيانَ ذَلكَ المَنْظَرَ ارْتَعَدَتْ فَرَائِصُهُ ، وَانْطَلَقَ ذَاتَ اليَمينِ ، فَالْتَقَىٰ بِالعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ ، فَانْكَبَّ عَلَىٰ رَأْسِهِ يُقَبِّلُهُ وَهُوَ يَقُولُ : مَا العَمَلُ يَا أَبَا الفَضْلِ ؟!

فَأَرْكَبَهُ العَبَّاسُ خَلْفَهُ عَلَىٰ بَغْلَةِ الرَّسُولِ ، وَرَاحَ يَتَجَوَّلُ بِهِ بَيْنِ صُفُوفِ المُسْلِمينَ ، لِيَرىٰ بِأُمِّ عَيْنِهِ قُوَّةَ المُسْلمينَ ، وَمَدَىٰ حُبِّهُم للرَّسُولِ ،

لِذَلِكَ قالَ للعبَّاسِ : يَا عَبَّاسُ ، مَا رَأَيْتُ كاللَّيْلَةِ وَلا مُلْكَ كِسْرَىٰ وَقَيْصَرَ!! وَنَصَحَهُ العَبَّاسُ بِأَنْ يُسْلِمَ قَبْلَ أَنْ يَحْدُثَ مَا لاَ تُحْمَدُ عُقْبَاهُ ، وَبِالفِعْلِ أَعْلَنَ أَبُو سُفْيَانَ إِسْلامَهُ ، فَقَالَ لَهُ العَبَّاسُ : إِنَّها النُّبُوَّةُ يا أَبَا سُفْيان ، وَأَرَادَ الرَّسُول أَنْ يُكَافِئَهُ ، فَقَالَ : « مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيانَ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ دَخَلَ دَارَ حَكيمِ بْنِ حزامٍ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ دَخَلَ الكَعْبَةَ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ دَخَلَ المَسْجِدَ فَهُو آمِنٌ ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ » .

وَانْطَلَقَ أَبُو سُفْيانَ إِلىٰ مَكَّةَ ، وَنَصَحَهُمْ بِأَنْ لاَ يُقَاوِمُوا ، إِنَّما عَلَيْهِمْ أَنْ يَدْخُلُوا البَيْتَ الحَرَامَ ، أَوْ يَتْرُكُوا مَكَّةَ وَيَخْرُجُوا إِلىٰ الجِبالِ!!

* * *

وَسَقَطَت عَاصِمَةُ الشِّركِ مَكَّةَ!!

وَوَزَّعَ الـرَّسُـولُ صلـى الله عليـه وسلـم المُسْلِمينَ إلىٰ فِرَقٍ ، وَأَمَرَ كُلَّ فِرْقَةٍ أَنْ تَدْخُلَ إِلَىٰ مَكَّةَ مِنْ نَاحِيَةٍ مِنَ النَّواحِي .

وَأَمَّا هُو صَلَواتُ اللهِ عَلَيْهِ ، فَقَدْ دَخَلَ مَكَّةَ وَهُوَ يَرْكَبُ نَاقَتَهُ ، مُطَأْطِىءَ الرَّأْسِ ، خَاشِعاً ، مُتَذَلِّلاً لله تَعَالَىٰ ، لاَبِساً عَلَىٰ رَأْسِه عِمَامَتَهُ السَّوْدَاءَ ، وَلِحْيَتُهُ تَكَادُ تَلْصَقُ بِظَهْرِ النَّاقَةِ ، وَكَانَ يُرَتِّل آياتٍ مِنْ سُورَةِ الفَتْحِ .

وَلَمَّا أَطَلَّ عَلَىٰ الحَرَمِ المَكِّيِّ ، عَادَتْ بِهِ الذِّكْرَيَاتُ إِلىٰ حَيْثُ عَذَّبَهُ قَومُهُ ، وَآذَوْه ،

وَحَاوَلُوا قَتْلَه ، وَقَتَلُوا بَعْضَ أَصْحَابِهِ ، وَطَرَدُوهُ مِنْها و...!!

وَهَا هُو يَدْخُلُها فَاتِحاً مُنْتَصِراً ، فَنَظَر إِلىٰ الكَعْبَةِ وَقَالَ : « أَنْتِ حَرامٌ ، مَا أَعْظَمَ حُرْمَتَكِ وَأَطْيَبَ رِيْحَكِ ، وَأَعْظَمُ حُرْمة عِنْدَ اللهِ مِنْكِ المُؤْمِنُ » .

وَأَشَارَ إِلَىٰ الأَصْنَامِ وَهُوَ يَتْلُو قَوْلَهُ تَعَالىٰ : ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء : ٨١] .

فَتَهاوَتْ عَلَىٰ الأَرْضِ!!

وَاجْتَمَعَ المُشْرِكُونَ بَيْن يَدَيْهِ ، وَهُمْ يَتَوقَّعُونَ أَنَّهُ سَيُشِيرُ إِلَىٰ سُيوفِ أَصْحَابِهِ لِتَقْطَعَ رِقَابَهُمْ ، لٰكِنْ كَيْفَ يَفْعَلُ ذٰلكَ وَهُوَ الَّذي وَصَفَهُ اللهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً

لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

وَأَلْقَىٰ فِيهِم خُطْبَةً عَصْمَاءَ قَالَ فِي بِدَايَاتِها ، : « يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، مَا تَظُنُّونَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ ؟ »

فَقَالُوا : خَيراً ، أَخٌ كَرِيمٌ ، وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ .

فَقَالَ نَبِيُّ الرَّحْمَةِ صلى الله عليه وسلم : « اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ » .

فَمَا كَانَ مِنْ غَالِبِيَّةِ المُشْرِكينَ إلا الدُّخولُ في الإسْلامِ ، وَإعلانُ البَرَاءَةِ مِنَ الشِّرْكِ ، وَالتَّشَهُّدُ بالوَحْدَانِيَّةِ لله تَعَالَىٰ .

وَهَذَا مَعْنىٰ قَولِهِ تَعَالَىٰ : ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر : ١-٣] .

ثُـمَّ تَـوَجَّـهَ عَلَيْـهِ الصَّـلاةُ والسَّـلامُ إِلـىٰ الأَنْصَارِ ، وَقَالَ لَهُمْ مُطَمْئِناً :

« إِنِّي عَبْدُ اللهِ وَرَسولُهُ ، هَاجَرْتُ إِلىٰ اللهِ وَإِلَيْكَمْ ، فَالمَحْيا مَحْيَاكُمْ وَالمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ » .

وآخرُ دعْوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العَالمِينَ

* * *